الفصل الثالث

القرآن والتفسير المجازي الحداثي

ولقد جانب البعض الصواب حين ذهبوا إلى أنَّ القرآن تشكيلة مجازية بناءً على سمة القرآن التأثيرية، وتأويلاً للقرآن وفقاً للمعلومات العلمية المحدودة في الزمان والمكان أو «الفضاء العلمي المعاصر»، أو فرضاً لمذهبية بشرية على هذا الكتاب العلي الحكيم الذي لا يخضع لهذه المذهبيات القاصرة، كالمذهب الرمزي، أو الدوالي المفتوحة لـ «رولان بارت»، أو نظريات لغوية متأخرة.

ومنهم من زعم أن اللغة الدينية كلها مجاز أي ضد الحق، وقد استشهد أولئك باستعمالات اجتهادية لغوية لكلمة المجاز لم يكن يرد أصحابها منها التفسير الذي يذهبون إليه، كاستعمال أبي عبيدة لهذه الكلمة والتي كانت لديه مجرد مقاربة لغوية للدلالة على تفسير آيات القرآن دون أن يبتغي أصحابها منها وجود أنباء أو قصص أو علم لا تتسم بسمة الحق والصدق، كما بين «فؤاد سزكين» في مقدمته لكتاب المجاز: «ومهما كان الأمر فإن أبا عبيدة يستعمل في تفسيره للآيات هذه الكلمات: «مجازه كذا» تفسيره كذا، «و» معناه كذا، «و» غريبه كذا، «و» تقديره كذا، «و» تأويله كذا، على أن معانيها واحدة أو تكاد، ومعنى هذا أن كلمة المجاز عنده عبارة عن الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته، وهذا المعنى أعم بطبيعة الحال من المعنى الذي حدده علماء البلاغة لكلمة المجاز فيما بعد، ولعل «ابن قتيبة» قد تأثر في كتابه

«مشكل القرآن» بأبي عبيدة في استخدام كلمة المجاز بهذا المعنى العام»[1]. وكمثال على ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ [الأعراف: 163] [إذ يتعدون فيه عما أمروا به ويتجاوزونه][2] فهذا تفسير ومقاربة، وليس رمياً لكلمات الله بالسمة الخيالية.. ورغم استعمال ابن قتيبة لكلمة المجاز في بيانه لشتى أنواع التصريف في القرآن فإنه تنبه إلى ما يثيره الذين في قلوبهم مرض من مزاعم بوجود أقوال غير الحق في القرآن، ورد على ذلك قائلاً: «وذهب قوم في قول الله وكلامه إلى أنه ليس قولاً ولا كلاماً على الحقيقة، إنما هو إيجاد للمعاني، وصرفوه في كثير من القرآن إلى المجاز»[3]، ثم ذكر أمثلة على ذلك آية الأمر بالسجود لآدم، الوحي للنحل، والخطاب الرباني للسماء والأرض أن يأتيا طوعاً أو كرهاً، مبيناً أن هذ الأوامر والإيحاءات والخطابات حق، وليست مجازاً مجرداً من الواقع، وكذلك نطق جهنم يوم القيامة، وتسبيح الجبال والطير... وساق حجة القرآن على ذلك، وعزز ذلك بالبرهان اللغوي حين قال: «إن أفعال المجاز لا تخرج منها المصادر، ولا تؤكد بالتكرار»[4] بينما اشتق المصدر لهذه الأفعال، وأكدت بالتكرار، وذلك لنفي المجاز عنها كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: 40]، فوكّد القول بالتكرار ووكّد المعنى بـ «إنما»... كما قال في سياق حديثه عن نطق جهنم الذي يبين سعتها في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: 30] «إنه إخبار عن سعتها فما يحوج إلى التعسف والتماس المخارج بالحيل الضعيفة، وما ينفع من وجود ذلك في

(1) المجاز، أبو عبيدة معمر بن المثنى، من المقدمة. ص: 19.
(2) المصدر نفسه، ص: 230.
(3) تأويل مشكل القرآن، أبو قتيبة ابن الدينوري.
(4) المصدر نفسه، ص 111.

الآية أو الآيتين والمعنى والمعنيين وسائر ما جاء في كتاب الله ﷻ من هذا الجنس، وفي حديث رسول الله ﷺ ممتنع عن هذه التأويلات»[1].

العلم الحديث يؤكد: أن القرآن حقٌّ كله

وفي العصر الحديث ألم يصنع الإنسان على مثاله نموذجاً آلياً يمارس الخطاب ويعطي الأسئلة شتى أنواع الجواب؟ ألم يظهر للإنسان منطق الطير بعد أن كان يظنه البعض خيالاً ويستعمله الأُدباء بشكل رمزي لبيان شعور وفكر إنسانيين؟ ألم يتبين للإنسان تأويل حشد من الآيات العلمية على أرض الواقع في مختلف أمور الإنسان والحياة والكون بعامة بعد استعمال كل وسيلة حديثة في العلم والتحويل والتصوير؟ ثم لماذا يجادل الإنسان في آيات الله بغير علم أو بعلمه القليل وهو مخلوق ضعيف لايحيط بعلم الله كله، وليس له التحكم الكلي في قدره، وفي الكون، وقد قالت الملائكة من قبل مُقِرَّة بمحدودية علمها: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32]..

وقد ذكرت في القرآن قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح ليعلم الإنسان أنه حتى الأنبياء عليهم السلام لا يعلمون كل شيء، قال الله تعالى في آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255] فالقرآن: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42] (وهو كتاب كل عصر، وهو الثابت على كل علم وبحث وكل اختراع واستكشاف على مدى الأزمنة في أيها جاءت، مما

(1) تأويل مشكل القرآن، أبو قتيبة الدينوي، ص: 111.

سيستأنفه التاريخ، وهذا معنى «وليس يخفى عليك أن العصور يصوّب بعضها بعضاً، ويرى بعضها خطأ الآخر، وقد يتقرر في زمن ما يثبت بعد أزمان طويلة أنه كان خطأ؛ فقوله سبحانه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: 42] من الكلمات التي لا تخطر بفكر إنساني يظن أنه يشخص العصر الجاهلي، بل هي علم من لا يعلم غيره أنه ستجدّ أمور، وتحدث علوم، وتمحص تواريخ، وتنشأ مخترعات»[1].

أما بناء الموضوع على أقوال بعض المتصوفة الذين تأثروا بنظرية المثل الأفلاطونية والتي تنفي واقعية الأشياء الدنيوية وحقها، وكل ما يتعلق بها من مسميات حسية، فإنه بناء هش متداع لأن النظرية بشكلها الفلسفي لم يعد لها قبول علمي... وكذلك شطحات بعض المتصوفة وحالات وجدهم النفسي التي جعلت بعضهم ينفصل عن واقعه شعورياً أحياناً وفكرياً أحياناً أخرى، فلا يقيم وزناً مناسباً للحق في هذا العالم الدنيوي، الحق الحسي والعقلي والتصوري فيراه غير حق، فإنها لا يقام عليها بناء عقلي محكم أو خطاب ملزم.

ثم إنَّ المتصوفة يمكن أن يكونوا قد قصدوا من مجازية العالم واللغة عدم قيام الأشياء بنفسها بل خلق الله وتدبيره لها، وليس بكونها ذات سمة خيالية بل بكونها متعرضة للفناء، وذلك بزوال صورها المادية وآثارها الحسية في الساعة الأخيرة التي تظهر فيها في اليوم الآخر وذلك بظهور سمات أخرى للأشياء ومعالم وصور مختلفة لها، وحق خاص بها.

لقد كان الأولى بهؤلاء الكتاب أن يبحثوا عن حق القرآن بمنهاج هذا الكتاب لا بالنظريات المتناقضة التي يلفقون بينها كالتلفيق بين النظريات الفلسفية والتصوفية والمادية الجدلية والتجريبية التي لا تلتقي في مناهجها...

(1) تحت راية القرآن، مصطفى صادق الرافعي، ص: 150، 151.

وأن يؤمنوا بأن هذا القرآن وحي صادق، فنسبة المجاز إليه والأُسطورة اتهام للرسول ﷺ بالاختلاق والشاعرية والافتراء على الله سبحانه، برأه منه ﷻ بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشورى: 24].

وقد زالت التصورات المجازية والأسطورية للكون ودخلت في قفص المحاكمة العلمية، ولا زال حق القرآن موافقاً للعلم اليقيني التجريبي والواقع القصصي والتاريخي الصادق، ولا تناقض في القرآن بين شقي العلم والمعرفة، البشرية الحسية، والغيبية الدينية.

القرآن لم يستعمل الأساطير في خطابه وليس ذا بنية أسطورية

وحين نتلو القرآن فلنكن مطمئنين إلى أن القرآن ليس فيه أساطير، وأنه ليس ذا بنية أسطورية كما زعم بعض الكتاب الذين سموا لقرآن بالحدث التأسيسي أو اللحظة النبوية يرتفع بالقيم المعاشة والنظرة الفكرية الخاصة إلى درجة التعالي وإلى طراز من «التعبير» ذي بنية مثبتة وأسطورية، أو كما قال بالحرف: «وأما القصص القرآني والحديث النبوي والسيرة فتقدم دائماً على أنها تشكيلات استدلالية عقلية، في حين أنها مدينة جداً لفعالية المخيال الذي يبلور الأساطير الخاصة بأصول كل فئة أو ذات جماعية ويساهم في تأسيسها وانحياز هويتها»[1].. وداعياً إلى كشف نسبة العقلانية فيها وفقاً لـ: «أنثروبولوجيا المخيال وعلم اجتماع العامل الأسطوري والشعائري والتاريخي العقلاني[2] واللاعقلاني والعقل الكتابي والتراث الشفهي»[3].. وقد أكَّد هذا الكاتب ذلك في أكثر كتبه، منها قوله عن مجيء إبراهيم الخليل

(1) تأريخية الفكر العربي، محمد أركون، من المقدمة، ص: 14.
(2) المصدر نفسه.
(3) الإسلام، أوروبا، الغرب، محمد أركون. ص: 75.

إلى مكة إنه: «حقيقة لا تناقش بالنسبة للوعي الأسطوري أو المنغمس في الخيال الأسطوري، ولكنه لا يعني شيئاً يذكر بالنسبة إلى الوعي التاريخي الحديث الذي يضبط الواقع ضبطاً تاريخياً محققاً»[1]. . كما أشاد تحت عنوان الحكاية الأسطورية بكاتب مصري هو «أحمد خلف الله» وذهب إلى أنه جريء لأنه ذهب إلى أن القرآن قد وظف الأساطير في بنائه القصصي، لكنه لم يرض عنه لأنه قدم تنازلات مهمة تجاه عقيدة إعجاز القرآن لنقص معلوماته وحرصه على مراعاة الموقف الإيماني الإسلامي كما زعم[2].

وقد جعل من علامات أسطورية القرآن عدم قدرة خطابه «أن يلمس إلا وعياً يسبح في محيط السحر والاندهاش»[3] وإن المعطيات الخارقة لما سماه بالطبيعة والحكايات الأسطورية القرآنية المزعومة تتلقى بصفتها تعابير أدبية محورة عن مطامح ورؤى وعواطف حقيقية تمليه. . . فقط للتحليل التاريخي السوسيولوجي والسيكولوجي واللغوي أن يعريها ويكشفها كما زعم.

الأسطورة في الاصطلاح الغربي والعربي

وقبل أن نرد هذا الافتراض وندحضه نزيل شبهة حول تفسير الأسطورة في الاصطلاح الغربي، لأن البعض ممن يروج فكر أركون وأمثاله ينفي المدلول الخرافي عن هذا الاصطلاح، ويزعم أن هذا الكاتب لم يرد بالأسطورة أو البنية الأسطورية للقرآن مقاربتها المتخيلة المختلقة عند الإغريق (Myfh أو Myfos) أي الكلمة المنطوقة، وهي كلمة ذات وظيفة سحرية، والمجال الذي تنطق فيه مجال خاص تطفو فيه المشاعر فوق العقل والمنطق لتسبح في عالم مليء بالصورة التي تربط باللاشعور الجمعي.

(1) الفكر الإسلامي للمؤلف. ص: 203.
(2) الفكر الإسلامي، ص: 191.
(3) نفس المصدر، ص: 126.

ففي الكنز الوسيط «ميثولوجيا»: «تاريخ أسطوري للآلهة والأبطال، أسطورة: خرافة، وهم، ترّهة..»[1]... وفي معجم فونك تمثل الأسطورة بداية الفكر الفلسفي.. وقد ربط «جيمس فريزر» بين الأسطورة والسحر، ونظر إليها نظرة دونية، وادعى أنها تتنافى مع العلم التجريبي، وفسر ظهورها بمرور زمن معين على ممارسة طقس «ما».

وفقدان الاتصال مع الأجيال قد جعل الطقس خالياً من المعنى والسبب والغاية، فالأسطورة تعطيه تفسيراً وتسويغاً.. وفسرها مالينوفسكي بأنها تدعيم لسيطرة قبيلة معينة وتحقيق لعاداتها... «فرويد» ذهب إلى أنها انعكاس لرغبات وأمنيات مكبوتة كالحلم... و«كارل يونغ» ذهب إلى أنها خارجة عن اللاشعور الجمعي المزعوم تعويضاً عن رغبات مكبوتة تخرج الصور والخيالات المشتركة في شكل رموز[2]، «إريك فروم» ذهب إلى أن الأسطورة صورة ساذجة «ما قبل علمية» للعالم والتاريخ ونتاج للتخيل الشعري الجميل، وأن المؤمن التقليدي هو الذي يعتقد أن: «القصة الظاهرة للأسطورة حقيقية، وعلى المرء أن يؤمن بأنها وصف صحيح للأحداث التي حدثت فعلاً في الواقع»[3] بينما المقاربة الجديدة تراها أنها التعبير الرمزي عن المعنى الديني والفلسفي.

د. «أحمد كمال زكي» يرى أن: «الأسطورة عادة ثمرة جهود الإنسان في فهم «الطبيعة» والكون وفي تسمية ظواهره وتحديد أماكنه»[4] وأنه لا توجد فروق دقيقة بين الخرافة والأسطورة.

---

(1) الكنز الوسيط، مادة: Mythe.
(2) مغامرة العقل الدولي.. دراسة الأسطورة، فراس السواح، ص: 10.
(3) اللغة المنسية، أريك فروم، ص: 23.
(4) الأساطير، أحمد كمال زكي، ص: 59.

وكثير من الدارسين يرى أن الحكاية الخرافية لون من الأساطير، وفي اللغة فإن الأساطير هي الأحاديث التي لانظام لها: «إن الأسطورة عندنا اليوم لا تخرج عن أن تكون قصة خيالية قوامها الخوارق والأعاجيب التي لم تقع في التاريخ ولايقبلها عقل، حتى إننا عندما نريد أن ننفي وجود شيء، نقول: أنه أسطوري، ويذهب - ماكس مولر - وكان أكثر من نصف قرن أكبر المشتغلين بلغة الأساطير إلى أنها تصوير لفترة من الجنون على العقل البشري أن يتجاوزها»[1]... و«منطق الأسطورة» هو اللامنطق واللامعقول واللازمان «وهي ضرب ممتع من أحلام اليقظة»[2] وقد: «أخطأت الطريق في السيطرة على «الطبيعة» عن طريق السحر والطقوس»[3] فراس السواح ذهب إلى أن الأسطورة: «مغامرة فكرية لإنسان العصور القديمة تهدف إلى كشف الحقائق وفتح آفاق المعرفة تتسم بالقداسة والغنى»[4]... وأخيراً فإن ليفي شتراوس «حفيد حاخام يهودي» وأبو البنيوية يرى: «أن الأساطير أبنية قائمة بنفسها ونظماً مغلقة صائبة للمؤمنين بها وغير قابلة للنقص من الخارج الذي يكشف بناها الخرافية وخلاياها الوهمية والظنون الملتبسة بها... وأنها ناشئة من اللاشعور الذي يعرض صوراً على المحتوى فتحيلها الوظيفة الرمزية إلى رموز»[5].

أما المعاجم العربية فإننا نقرأ فيها نفس التفسير الخرافي للأسطورة؛ ففي لغة العرب الأساطير هي: «الأباطيل والأحاديث التي لا نظام لها»[6]. «وكذلك في القاموس المحيط هي نفس الأحاديث»[7].

---

(1) الأساطير، أحمد كمال زكي، ص: 107.
(2) المصدر نفسه ص: 107.
(3) المصدر نفسه ص: 115.
(4) العقل الدولي، فراس السواح، ص: 17.
(5) البنيوية، أوزياس. ص: 114.
(6) لسان العرب، ج 4، ص: 363.
(7) القاموس المحيط ج 2، ص: 69.

تنزيل رب العالمين وليس أساطير الأولين

لنقرأ القرآن أولاً، ولنتبين أن هذه الفرية ليست جديدة بل هي قديمة ألقاها المشركون جزافاً بدون برهان علمي وصنعت من جديد بلباس غربي «أكاديمي» بين جدران السوربون الذي كان أركون يشرف على قسم دراساته الإسلامية.. من المعلوم أن الشعب الذي أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ فيهم كان شعباً أمياً ذو علم شفاهي غير مكتوب، وذو تراث شعري متميز، فهو شعب المعلقات السبع المفاخر بتراثه البياني والشعري، وقد تحدى القرآن هذا الشعب بأن يأتوا بكتاب مثل القرآن، وبعشر سور مثله، بل بسورة تماثل إحدى سوره، فعجزوا، علماً بأنهم كانوا يعرفون الأساطير ويستعملونها للتشويش على القرآن كما قال تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: 6].

فلم يقوموا بإزالة تأثير القرآن الإيماني بأساطير الفرس والروم وحكاياتهم التاريخية الخرافية التي تلبَّست في مخيلتهم بالباطل، والتخيلات والزيادات... والرجل التاريخي الذي اتهم القرآن بالسحر الذي يخلب اللب ويفرق المرء وأهله وولده ومواليه، ذكره القرآن في سورة المدثر، وقد فسر القرآن بأنه: «أساطير الأولين»... وقد أوعد الله سبحانه بوسمه بسمة على أنفه ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: 16]. ومن مقاربات الخرطوم طرف أنف الخنزير البري إهانة له وإذلالاً وتمييزاً... كما أوعده في تهمته الباطلة الثانية بدخول «سقر» التي: ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ [المدثر: 28].

ثم بيَّن ﷻ أن هذا الرجل الذي قد يسمى مفكراً في هذا العصر لم يكن مخلصاً في مقاربته وبحثه، وإن موقفه لم يكن صواباً، وإنه كان يعاني من عقد وذنوب قد صارت له من السمات الثابتة؛ فهو كثير الحلف، احترف الكذب

يداريه بالحلف المستمر، وهو يشعر بالمهانة والدونية فيقوي بالحلف آراءه ويبرز نفسه، وهو يبحث بشكل دائم عن نقص الآخرين ليستغلها لأهوائه التفكيكية، وينقض ما بناه الناس، ويقوم بأعمال تجسسية واستخبارية لإفساد الصلات الاجتماعية... ويبالغ في منع الخير ويشدد في الرقابة عليه بإجراءات عدوانية وآثمة، غارق في الخطايا، وهو من النوع الحسي الشهواني الغليظ العنيف يسيء المعاملة، يحتمي بماله وولده وقوته العددية عن مواجهة الحق.. فأسباب افترائه كانت «نفسية وفكرية وأخلاقية».. وفي سورة المدثر تكمل صورته ويوصف مشروعه الفكري بعدم الاستواء، وتبرز سمته الانفعالية وعدم رضاه عن بحثه لعدم استقامته «موضوعيته» فيه، وتغطيته ذلك بحركات انفعالية تنم عن قلقه ومزاجيته، وقد سمى علمه الفكري «تقديراً»، والتقدير كما يقول الراغب إذا كان إنسانياً فإنه «لا يخلو من شهوة وتمنيات وتخيلات» أو«دوافع نفعية»، قال الله فيه:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [القلم: 10-16].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر: 18-26].

وقد نفى القرآن عن نفسه فرية البنية الأسطورية، وبيَّن أن هذه المقولة لا تنطبق على القرآن، وأنها تدل على عدم إيمان أصحابها بالبعث والحياة الثانية، ولذلك زعموا أن حديث القرآن عنها من الأباطيل والخرافات والأساطير ونهوا عن استماعها، ونأوا عنها، وقد أكد القرآن أن هؤلاء لا يمكن أن يؤمنوا بحديث القرآن وأنبائه الغيبية، وأنهم يمارسون مهمة تضليلية

ماكرة، ويقيمون بنياناً مذهبياً «بنيوياً متداعياً»، وأن القرآن قد جاء بالحق، وليس فيه خرافات، وأنهم الكاذبون، وأن الله سبحانه يعلم الغيب والشهادة وسرّ السمٰوات والأرض، وحديثه عنها لا ريب فيه... أما صنّاع الأساطير فقد ملأوا افتراضاتهم بالأباطيل والأكاذيب حول الصراع بين الآلهة والبشر والتفسيرات غير الصائبة للكون والظنون الهائمة والأهواء، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: 31-32] وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: 6].

ولقد رد على أركون فيما ذهب إليه من وجود العجيب المدهش في القرآن الذي يعطل في زعمه مراكز «الإدراك والوعي» المعتمدة على التجربة المحسوسة، ويدخل القارىء في أحلام مسلية وممتعة سرعان ما تنسى رد عليه «جيماريه» قائلاً بشأن القرآن الذي لم يستجب إلى طلبات المشركين بإظهار الآيات الخارقة للمألوف العلمي لتصديق رسالته، والذي خاطب العلم والعقل في آياته، ولم يرد أن يتسلط حسياً على القارىء أو يتعامل معه بالإكراه، قال: «عندما يقال القرآن يثير الإعجاب والانبهار، فإن ذلك يختلف عن موقفنا إزاء العجيب المدهش المتمثل بالافتتان والانخداع الساحر.... عندما يريد الله أن نعجب بروائع خلقه فإنه لايحاول أن يفتننا، أو يسحرنا، أو يصعقنا بالدهشة، وإنما هو متوجه إلى ذكائنا المتعقل، لا المفتون ولا المسحور»[1].

واستدرك عليه «مكسيم رودنسون» بأن كلمة عقل وجذورها وإن كانت لا

(1) الفكر الإسلامي، ص: 191.

تعني بالضرورة نفس «مدلول» عقل الفرنسية «Raison» فإن القرآن يدعو إلى التعقل والاستنباطات العقلية»[1].

وإذا كان المشركون من قبل والعلمانيون من بعد قد زعموا بأن القرآن ذو بنية أسطورية بمقاربة أنه يحتوي على الباطل سواء في قصصه أو أمثاله أو في آياته الكونية فإنّ الله ﷻ يقول في نقض زعمهم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: 17].

أما قصص القرآن فهو القصص الحق الذي لا يتضمن باطلاً أو افتراء على التاريخ والواقع كما قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111].

فلقد صدّقت هذه القصص ما بقي من حق في الكتب السابقة، وهيمن عليها علمياً، وصوّب أخبارها التي تعرضت للتحريف، ويمكن مراجعة كتاب «موريس بوكاي» القرآن والتوراة والإنجيل في ضوء العلم «للتأكد من أن رواية القرآن التاريخية هي الأصوب في مواضيع الطوفان وخروج موسى عليه السلام من مصر وموت فرعون، ويقول المستشرق الأمريكي واشنطون إيرفنج في كتابه عن حياة النبي ﷺ: «كانت التوراة في يوم ما هي مرشد الإنسان وأساس سلوكه، حتى ظهر المسيح عليه السلام واتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل، ثم حل القرآن مكانهما، فقد كان القرآن أكثر شمولاً وتفصيلاً من الكتابين السابقين، كما صحح القرآن ما أدخل على هذين الكتابين من تغيير»[2] وتقول: «ديبوار بوتر» عن القرآن: «إنه يقدم لنا الأحداث بطريقة منطقية نجدها متناقضة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية، أما القرآن فيتحدث عنها في نسق رائع «و»

(1) الفكر الإسلامي، ص: 223.
(2) قالوا عن القرآن، عماد الدين خليل، إشارات الإعجاز، ص: 25.

أسلوب «قاطع لا يدع مجالاً للشك بأن هذه هي «الحقيقة»، وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة»[1].

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: 31].

وآيات القرآن العلمية كلها حق، وهي ترينا في كل عصر أمثلة مثبتة بالاكتشافات العلمية، وقد تميز هذا العصر بكثرة نوعية في الآيات العلمية المراءة للإنسان كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11].

يقول: «موريس بوكاي» عن ما ذكر في القرآن من آيات علمية لم يكشف تأويلها إلا في العصر الحديث: «ولقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العلمية في البداية، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نص كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً، في البداية لم يكن لي أي إيمان بالإسلام، وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة، وكان هدفي الأول هو قراءة القرآن ودراسة نصه جملة بجملة مستعيناً بمختلف التعليقات اللازمة للدراسة النقدية، وتناولت القرآن منتبهاً بشكل خاص إلى الوصف الذي يعرضه عن حشد كبير من الظاهرات «الطبيعية»، لقد أذهلتني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات، وهي تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا وهي في النص الأصلي»[2].

وقد ذكر عدة أمثلة على هذه الآيات عن خلق السمٰوات والأرض، وخلق

(1) قالوا عن القرآن، عماد الدين خليل، إشارات الإعجاز، ص: 255.
(2) القرآن الكريم، التوراة، الإنجيل، والعلم، موريس بوكاي. ص: 144 - 145.

الإنسان والحيوان، لا مجال هنا لذكرها لكثرة ذكرها في الكتب المتخصصة بهذه الآيات وخاصة كتب الدكتور زغلول النجار.

الأمثال كمثال على الحق في القرآن

إن الأمثال المذكورة في القرآن ليست مجازاً مناقضاً للحق أو بالكلمة المصغرة «الحقيقة» أو ذا سمة شعرية أو تخيّلية تخاطب الشعور فقط ويقصد بها الإمتاع، كما أنها ليست تاريخية العطاء، بل هي موافقة للحق في الكون والحياة والإنسان، كما تخاطب كل قوى الإدراك والتفكر والعقل، وسنذكر بعضها لإثبات ما نقول، قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21].

ولقد كانت النظرة القديمة للمادة ترى أنها ساكنة، ورأى القرآن أنها مسبّحة وفي حركة دائمية، وكان العلم في نظرياته التاريخية يرى الجبال جامدة، ورأى القرآن أنها تمر مرّ السحاب، فكيف أحاط القرآن بتسبيحية الأشياء المادية وحركة ذرتها، وقبل أن تتقدم بحوث الفيزياء الكونية مخالفةً للنظرة التاريخية للعلم؟ آيات هذا الكتاب بينت سباحة كل القطع الكونية والمجرات في مدارات منتظمة بينما نظريات البشر الماضية كانت تذهب إلى أنها ثابتة راكدة؟ إذاً فالعلم الكامل هو الذي يعلمه الله سبحانه، أما علم الإنسان فهو محدود يتجه نحو التكامل ببطء تراكمي، والأمثال في القرآن تدعو الإنسان إلى أن يتفكر «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» في الحق الذي تدعو إليه هذه الأمثال، فالقرآن لو أُنزل ولم يقل «يُوضع» [فالوضع غير الإنزال لِأن الإنزال يحمل تفسيراً خاصاً يتمثل في ما تتسم به كلمات هذا الكتاب وآياته من أسماء الله الحسنى، وسر الكون وحقه، ومن الأمر والنهي والحكم، وفيما تحدثه في بنية من نزل عليه من آثار] بحيث لو أنزل على جبل - والجبل تركيبة هائلة من

الذرات المسبحة وفق كيفية لا يعلم علماء الفيزياء إلى الآن سرها الكامل ولم يشاهدوا حركتها الداخلية - لخشع وتصدع من خشية الله انفعالاً، ألم تكشف لغات النباتات؟ ألم يظهر للعلماء الآن منطق الطير بعد أن كانت التعريفات الفلسفية تظن أن الإنسان وحده هو «حيوان» ناطق؟ فالأمثال إذاً تدفع إلى التفكير ومراجعة النظرة التقليدية للعلم والأشياء والوصول إلى تصورات جديدة علمياً فلا يتقيد الإنسان ويرتهن إلى النظرة المادية للأشياء... لقد صعب على البعض أن يتصور أن تتكلم «الجمادات» حتى تكلمت، وأوّلت آية حوار الله معها مجازياً، والآن تكرر نفس المعاملة مع بعض الآيات.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: 73].

فهذا مثال يبين عجز غير الله سبحانه عن الخلق، ولو كان ذبابة، ولو اجتمع كل من تظن فيه القدرة على الخلق، فهل باستطاعة البشر وغيره أن يخلق شيئاً، وحين يسلب الذبابة شيئاً يحوّله ويتمثله ويعجز البشر عن استرداده، أليس هذا بالحق الذي نعلم به أسماء الله الحسنى ومنها أسماء العليم والقدير والعزيز؟ ونعلم به ضعف الإنسان وعدم تقديره لربه حق قدره فيزن إمكاناته على إمكانات البشر، ويجعل علمه القليل وعقله المحدود ميزاناً مطلقاً لعلمه وكلامه، ويزعم أن أمثلة القرآن وتشبيهاته مثل أمثلة الإنسان واستعاراته وألسنيته في الخطاب وكناياته اللغوية.

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 41] هذا المثل ضرب لمن يتخذ بيتاً أو بناءً من الموالاة لغير الله سبحانه والاعتماد على القوى البشرية أو غيرها؛ فمثل بناؤه ببيت العنكبوت الأكثر ضعفاً ووهناً، وهذا ما أثبته العلم الحديث.

ومن مقاربات الآية التفسيرية:

أولاً: كون الأمثال في القرآن حقاً علمياً موافقاً للواقع الخارجي.

ثانياً: التعامل معها بهذا المنظار وليس بالرؤية التخيلية أو الاستمتاعية التشكيلية، وذلك لتبين ما فيها من حق يكتشف بالعلم والعقل، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولا يريدون أن يخرجوا من الإطار العلمي الضيق الذي سجنوا فيه رؤيتهم: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43] وبهذا يتبيّن لنا أن أمثال القرآن التي يتشبث بها بعض الكتاب لِاتهام القرآن بالأسطورية ليست تشكيلة مجازية للمتعة والتخيل، أو إنتاجاً أسطورياً يسبح القارىء في أجوائها في عالم السحر والهيام المزوّر الزائف، بل هي حق موافق للواقع علاوة على حسنها البلاغي.

علوّ القرآن ومنهاج التفكيك

يرى البعض أن منهاج تفكيك النصوص متأسس من التعامل مع الحكاية الفرنسية الشعبية، وقد أسسه «جوليان كريماس»، ومنهاج التفكيك لا يؤثر على القرآن لأن كل ما فيه حق وصدق، وليس فيه إلا القيّم من الكتابة الذي لا يناقض العلم التجريبي والحسي، بل يبين العلم في آياته، وهو مطهر من الأساطير والظن والرغبات والهلوسات والتمنيات غير الواقعية والأمثلة «النماذج» التخيلية والبدائية عن الكون والحياة والإنسان، قال الله ﷻ في ذكر حقه مقارناً بالمحاولات التفكيكية لأهل الكتاب مع كتبهم التي كانت «بيّنة» في وقتها لكنها أخضعت للاختلافات المذهبية والعمليات التحريفية، من حيث حفظ الله له من هذه النظريات الاختلافية التي أدت إلى تفرق الكتابيين من قبل: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ

مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: 1-5].

فالقرآن كما بيَّن سبحانه لا يمكن أن يخضع لتفكيك أهل الكتاب والمشركين ومنهاجهم ووسائلهم ونظرياتهم المفككة، ولا يمكن أن يأتي يوم يترك فيه المؤمن إيمانه كما «زعم أركون» حين يتمكن من «خلق» كائنات حية في أنبوبة الاختبار: فـ«يهجر عندئذ الفضاء الساحر الخلاب الذي ولدت فيه الآيات القرآنية المتعلقة بقضية الخلق أي خلق الوجود، نوع من الحماسة يصل إلى حد الارتعاد»[1] كما يقول هذا الكاتب... فالإنسان سيبقى عاجزاً عن الخلق الذي هو من اختصاص الله سبحانه وحده، وإن كان اكتشاف بعض سر هذا الخلق أو وسيلته المخفية عن قرن معين محدوداً في فضاء كل عصر فإنه لا ينال من إيمان المؤمن أو استجابته لآيات القرآن بل تزيده إيماناً بربه وبأسمائه الحسنى التي يرى آثارها المبينة لعلمه سبحانه وتنوع طرقه في الخلق وإحاطته بكل شيء... وترفع إيمانه بهذا الكتاب الذي بين أن كل ما يصل إليه علم الإنسان إنما هو آيات الإيمان والعلم بشرط إخلاصه في بحثه العلمي وتقواه في مراحله وفي استثماره لها، بل إن القرآن يخاطب عقل الإنسان وشعوره معاً في توازن عادل، ولكنه لا يجعل العقل أسيراً مغلولاً بقيود المعلومات العلمية المحدودة لقرن معين من الناس بل يحثه على الانطلاق منها إلى علم أوسع وأعمق وأكثر تفصيلاً.

القرآن ليس «منتجاً» لغوياً تاريخياً

إن القرآن ككتاب معجزة، وعلينا أن نتدبره ونتلوه ونقرأه كذلك، وإن كان له صلة لسان وعلم وهدى للواقع الذي عاصره، وليس كـ «نص» لغوي تقليدي

(1) الفكر الإسلامي، محمد أركون، ص: 120.

أو ديني غير موثق وغير معجز. . . فالقرآن ليس منتجاً ثقافياً تولّد ونشأ في الزمان والمكان[1]، وتوضع في التاريخ والمجتمع كما زعم بعض الكتاب، بل هو تنزيل من الله سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ كما قال الله سبحانه:

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: 193-195] فالتوالد ظاهرة من ظواهر الخلق الذي يولد ويفنى ويموت، بينما القرآن من عالم الأمر الذي لا يخضع لهذه العوارض، ويبقى مؤدياً لرسالته، محفوظاً ووحياً يعلو على مواضعات فضاء العصر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9] وكونه ذكراً محدثاً يعني حداثة تنزيله وحداثة علم السامع والقارىء به وإلا فهو كلام الله الأزلي، ولو كان القرآن كما زعم البعض «منتجاً ثقافياً» ضمن إطار حدود العلم الذي عاصره، فلماذا لم يؤمن به المشركون مع إعجابهم وانبهارهم به، إن كان «نصاً» لغوياً متسقاً مع لغتهم لا يعلو عليها، وإذا كان سبب ذلك ما «مارسته» اللغة الدينية في القرآن من سلطان على هؤلاء المخاطبين، فلماذا اختلفت المواقف منه بين مؤمن وكافر؟ ولماذا لم يتوحد الحكم عليه؟ ولماذا ظهر مثال عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد تلاوة من القرآن في مواجهة مثال الوليد بن المغيرة الذي أعرض عن الإيمان رغم إعجابه بالسمات الشكلية والبلاغية للقرآن؟ وبم تفسر المواقف التكذيبية للقرآن والتفسيرات العصرية له والتي اتسمت بالتناقض والتهافت بين الشاعرية، والكهانة، والأسطورة وغيرها. . . أليس سبب ذلك عدم كون القرآن «نصاً» لغوياً يعمل عملاً مهمشاً في العقل، بل هو كتاب ذو سمات عالية، ومعجزة حالت حسيّة البعض وماديته وعلميته المحدودة وجموده دون الإيمان به.

---

(1) كما زعم نصر حامد أبو زيد في كتابه «النص والسلطة» الذي زعم فيه أن القرآن قد تشكل في اللغة الإنسانية بكل إشكاليات سياقها الاجتماعي والثقافي والتاريخي، وأنه قد تضمن تصورات أسطورية تجاوزها الوعي الإنساني.

قال الله ﷻ في بيان تنوع المواقف والاستجابة من القرآن: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: 124-125].

وإذا كان بعضهم يفسر القرآن كظاهرة لغوية «منتجة» ضمن إطار «ثقافتهم» المتداولة لا يتميز عنها إلا بكونه «نصاً فعالاً منتجاً» يأخذ بذوراً وإرهاصات من «ثقافة القوم» في أشكال أسطورية ومجازية «غير حقة» فلماذا لم يحاولوا تقليد هذه الظاهرة مع وجود الآيات التي تدعوهم لذلك وبأقصر الوحدات الكمية للقرآن «سورة»؟ غير معرضين أنفسهم لأشكال من المعاناة في العذاب في سبيل مواجهته القتالية، وغير متورطين في شتى أشكال الافتراءات الساذجة والمختلفة والمتناقضة لنقضه في مواجهته السجالية؟

ومن بينات كون القرآن منزلاً، وغير ناشىء من علم القوم، بريئاً من تأثيره عدا ذكر القرآن أحياناً لبعض أفكار المكونات المعاصرة وردودها وكلماتها واستعالاتها اللسانية كوثيقة أمينة لكل ما دار في تلك الفترة من حوارات وأسئلة واعتراضات كان للقوم أثر في إنشائها؛ إذ الاستعمال للرد أو غيره ليس خضوعاً لـ «ثقافة» أو طرفاً جبرياً لما سمي بـ«قانون نموها»، فالقرآن لم ينم، بل ذكر لها وتوجيه إلى الحق والأصوب والأفضل. . . . ومن بينات ذلك أن القرآن تجاوز علمياً وغيبياً وإيمانياً ما كان عليه الوسط والمحيط السائد، وقد تعجب المشركون كثيراً من أموره وقضاياه، وأبدوا شتى مشاعر التعجب والاستنكار تجاهها، ثم اتهموا الرسول ﷺ بشتى الملصقات الدونية فكرياً وخلقياً لمواجهته إياهم بها، وأوقعوا أنفسهم في تناقضات تفسيرية شتى لهذا الكتاب، قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [صٓ: 4-5].

بل بعض الأمور مثلت للمعاصرين من المشركين فتنة فكرية مزلزلة لم يستطيعوا تفسيرها عصرياً، ولا لغوياً، فلا البنية الفوقية ولا البنية التحتية لـ«الثقافة» المزعومة قد أنشأت مثل هذه الأسماء، مثل شجرة الزقوم التي وصفت بأنها شجرة خبيثة وشبهت ثمرها برؤوس الشياطين التي لم تكن متصورة تخيلياً من القوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات: 64-65].

فالقرآن كتاب الله الذي أنزل على رسولنا ﷺ، وهو صالح لكل زمان ومكان لِأنه تنزيل من الله العليم الخبير الذي يعلم فطرة الناس: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30].

وهو كتاب منزل بالحق وليس فيه أي باطل أو مخالف للعلم والواقع، وهو يصدق ما جاء في الرسالات السابقة من حق: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 37] ولا تجد فيه أي تناقض أو اختلاف يمكن إخضاعه للمنطق الجدلي: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82] هو ليس اتقاداً من داخل نفس الرسول ﷺ، أو تدويناً لذكرياته، ولو كان كذلك لكان حافلاً بذكريات صباه وآمال شبابه، والحوادث التي شكلت شخصية وأثرت في نفسه، بينما لا نجد في القرآن إلا بيانات موجزة عن هذه الفترة مذكورة لأسباب سجالية أو رسالية أو نفسية والتي يبين فيها القرآن بعض سمات الرسول ﷺ قبل الوحي ومقتضيات أخلاقه مثل سورة الانشراح التي أريد بها تذكيره ببعض نعم الله عليه ودعوته إلى الصبر على ما يواجهه من عسر وبلاء. . . وكذلك حياة أهل بيته وصحابته لم يذكر فيها إلا ما يمكن أن يكون للعبرة والاتعاظ للمؤمنين.

ولو كان الوحي قذفاً في النفس الباطنية، أو ما سماه فرويد «باللاشعور»

«ودوركايم» باللاشعور الجمعي، الذين لم يقم أي برهان تجريبي على وجودهما ووراثتهما للمتعلّم الفردي أو الجماعي، لما كان يضم افتراءات المنافقين والمشركين واليهود عليه.

وتبدو طريقة تنزيل الوحي خير شاهد على كون القرآن وحياً يوحى، وكذلك تلقي الرسول ﷺ وسمات الوحي.

فالرسول ﷺ لم ينتظر الوحي، ولم يتوقعه، كما قال ﷻ في آية: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: 52]، بل جاءه بدون مقدمات بشكل مباغت، وبكلمات محدودة لم يكن له خيار في تبديلها أو الزيادة عليها، أوالنقص منها، أو تحريفها، وهو في أوج استوائه العقلي وقوة ذاكرته ووعيه وتوازنه كما قال ﷻ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ ۖ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾﴾ [النجم: 1-7] وقد صاحبت حالة التنزيل الأولى آثار جسدية ونفسية عميقة غيرت حياته الاعتيادية، حتى دعاه خطاب من القرآن إلى مغادرة وضعه والبدء بمهمته الرسالية مسرعاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: 1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: 1]، مما يبين تنزيل الوحي من الله سبحانه وليس من أعماق النفس أو مقتضيات الفكر وحالات الشعور. . . . خاصة وأن الوحي لم يكن امتداداً لسابقة إنشائية في عالم الأدب أو الفكر، لقد ظهر الوحي وهو يأمر وينهى ويخاطب ويعلم، والرسول ﷺ يتلقى ويستجيب ويحفظ الرسالة، ولا يترك له الخيار في عدم التلقي، أو تلوين الاستجابة، أو تأويلها، أو منعها، أو التحكم في الكتاب: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52] وكل سمات جبريل المذكورة في القرآن من الكرامة، والقوة، والمكانة عند

ذي العرش، والطاعة في الملأ الأعلى، والأمانة في التبليغ، توحي بعلو ما أوحى به، وثقله، وتنزيله، وكونه آتياً من أعلى، وليس مكوناً ومولوداً من المحيط العلمي والمعرفي... كما أن التأكيد على أن صاحبهم ليس بمجنون حجة على علمهم بملكاته العقلية التي لا يُشك في سلامتها فهو قد صاحبهم عمراً: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 16]... وأنه ﷺ قد رأى هذا الرسول الكريم فعلاً وواقعاً وليس تخيلياً وتصوراً أسطورياً، وأن خلقه الذي يعلمونه تماماً يبعد عنه أي احتمال بالكذب في ادعاء هذه الرؤية: القلم: أما مذهبهم التفسيري المرضي للوحي «الجنون» فينفيه كون هذا الوحي ذكراً أحيى الذاكرة وقواها لكيلا تنسى الحق الثابت في الكون والحياة والإنسان، وتعمل بمقتضياته، وفرق كبير بين متخيل الذاكرة ومنقطعها ومفككها، وبين رسول في قمة الصفاء الفكري والرشد العقلي، وبين الجنون أو وحي الشياطين الذي يتسم بالباطل، ويقوم على الأماني والتسويلات والحض على نسيان الأمور الهامة والحقة، وقرآن كان من أخص سماته وأعماله إعادة الذاكرة الإنسانية المستقبلية إلى أفضل حالاتها.

القرآن محكم ومتشابه

والقرآن علينا أن نتلوه ككتاب يتسم بسمة الإحكام والتشابه، ولنأت بأمثلة على التشابه بعد ذكر الآية المبينة لذلك وهي قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 99] فالتشابه موجود في المخلوقات، في عالم النبات والفواكه مثلاً تتشابه أنواع من الزيتون والرمان في الاسم والشكل العام والخصائص المشتركة،

ولكنها تتباين في سمات أخرى وتتماثل كلياً كاختلافات اللون، والحجم، والطعم، والخصائص الدوائية والغذائية فيما بينها.

كذلك الأمر في عالم الإنسان والحيوان نجد نفس التشابه؛ إذ يحتاج الفصل بين إنسانين متشابهين كالتوائم مثلاً إلى تأمل ودقة في النظر وملاحظات شمولية، وقد تتشابه القلوب في سماتها، كما تتشابه مصنوعات الإنسان الآلية، فهناك أنواع هائلة من السيارات مثلاً أو أجهزة الكمبيوتر أو الهواتف النقّالة، ويكاد لا يحيط بوجوه التشابه يبن مصنوع واحد كالكمبيوتر مثلاً أو الهاتف النقال إلا المتخصصون الذين يملكون الخبرة الدقيقة والتفصيلية... وقد بين القرآن أمثلة للمتشابهات من الخلق، وذكر تشابه البقر على بني إسرائيل وبحثهم المرهق عن البقرة المرادة في تصورهم، كما تشابه على الذين هموا بقتل عيسى عليه السلام سَمْتَه فقتلوا رجلاً آخر للتشابه.

متشابه اللسان ومتشابه القرآن

وإذا جئنا إلى اللسان العربي فإننا نجد مثل هذه السمة؛ فهناك كلمات متشابهة وذات مقاربات مشتركة لفظياً أو تفسيرياً في اللسان واللغة العربية، نجد مثلاً كلمة النور تعطي مقاربات متنوعة كالدلالة الحسية المتمثلة في المصادر الكونية كنور القمر والنجوم، ونور السراج، ونور الكهرباء، كما يعطي مقاربة معنوية كنور الهدى إلى الحق والصدق، وكتاب منير لأنه يطرد ظلام الكفر والجهل والجمود والتقليد والهوى والظن، والرسول ﷺ كان سراجاً منيراً لأنه قام بتفعيل القرآن والعمل به، وكل هذه المقاربات الأخيرة لكلمة النور ليست تخيلاً يتسم بالظن، أو مجازاً يستعمل لإقناع القارىء فقط، أو ملاعبة تصوراته، أو افتراء على الواقع الحسي ومصادمة له، أو مصادرة على اللغة وتسلطاً عليها، إنه الاتساع البياني للسان العربي المبين، وقد يفسرها الحداثيون بالمجاز لعدم استشعاره أثره في القلب والنفس، فيقومون

بتأويلها وفقاً لمصطلحات ومذاهب غريبة عن القرآن واللسان الذي نزل به؛ كأن يُجعل من العجيب الخلّاب كما فعل الجاهليون حين تعجبوا من الأمور الإيمانية والغيبية في القرآن لعدم دخولها ضمن معلوماتهم التجريبيّة المحدودة عن الكون ومعلوماتهم الأسطورية، وأوّلوا القرآن بلاغياً فقط أو لغوياً أو شعرياً، ونسبوا الصور المشاهدة التي وردت فيه والتي لم يجدوا لها أمثلة في واقعهم بإمكانات الحلم والتخيل والإبداع الشعري التي تخترق حدود المألوف وتأتي بما هو مستحيل كما يكرر ذلك البعض من المعاصرين في تعاملهم الحداثي مع بيان القرآن.

لقد نزل القرآن بلسان العرب الذي كان قد وصل إلى قمة تطوره أثناء هذا التنزيل، ففي القرآن نجد اللسان العربي واسعاً، كثير المفردات، متنوع التفسيرات، غنياً بالأصول الكلماتية المبينة لمعاني متعددة، وقد نزل بلغة قريش التي كانت تضم كلمات ومفردات متناظرة ومتشابهة، مستوعبة من اللهجات الأخرى بل واللغات غير العربية، وقد زاد القرآن تفسيراً جديداً للكلمات واستعملها في سياقاته، فهو كتاب يتسم بسمة التشابه ولكن من عالم الأمر كما قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23] إلا أن هذا الكتاب لم يترك الإنسان لانتقائية في إعطاء التفسير الاعتباطي للكلمة، بل إنه بيَّن أصول تأويل هذه الكلمات وذلك بردِّها إلى آيات أخرى في القرآن محكمة الدلالة لم يترك فيها العقل البشري للفعل التمييزي لكشف وجوه التشابه فيها، قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: 7].

وكمثال على ذلك كلمة «روح» فإنها كلمة مقاربة تفسيرية عامة للأشياء اللطيفة وغير المنظورة، ومنها الروح التي نفخها الله سبحانه في آدم عليه السلام، وتسمية عيسى عليه السلام روحاً، وتسمية القرآن روحاً من أمر الله سبحانه، وتسمية جبريل بـ «الروح الأمين».

وحين جاء وفد نصارى نجران إلى النبي ﷺ وحاورهم في أمر المسيح عليه السلام، فإنهم لجأوا إلى التأويل الظاهري أو التجسيمي لعبارة «روح منه» في قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: 171]، ولم يعيدوها إلى الآيات المحكمة التي تبين أن الله سبحانه ليس كمثله شيء، وأنه ليس كالبشر والخلق المتكاثر الذي تنفصل المولودات منها وتنجزأ، أو تتبعض.. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].. فكلمة «منه» في هذا السياق لا يراد بها الانفصال المادي والانقسام الحسي، لكنهم تعلقوا بذلك لأنه يخدم عقيدتهم، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۖ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: 7] ولذلك لما ناظر المأمون أحد النصارى في هذا الأمر ذكر له مثالاً يبطل دعواه وذلك قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 13] فكلمة «مِنْهُ» هنا لا تعني حتماً أنّ السمٰوات والأرض قد اجتزئت من الله سبحانه وتولدت منه - تعالى الله عن ذلك - وبذلك أفحم الرجل ولم يجد جواباً، وهكذا علينا التعامل مع المتشابه في القرآن، فالتشابه لايراد منه الغموض والإغلاق.. وكما تتشابه في عالم الخلق بعض الأشياء والظواهر، وتحتاج إلى عمل عقلي ومعلومات تجريبية لإظهار وجوه التشابه، فكذلك - والقياس مع الفارق - مع القرآن لأنه من الأمر لإبقاء عقل الإنسان

عاملاً حياً في تعامله مع هذا الكتاب وعدم تعريض الفعل العقلي للجمود والسلبية والعطل، إلا أن هذا لا يقتضي تصويب كل البنى الظنية التي أدخلت في التفسير سواء من أمور الغيب، أو القصص، أو الفقه بمقاربته الشائعة، أو اللسان واللغة، أو البلاغة، أو النحو، أو علم الإنسان والكون والحياة. . . . فالقرآن لايحكمه شيء من هذه التأويلات التي قد تكون متأثرة بعلم ومعرفة عصر معين أو بخصوصية المفسر، ولذلك كان المفسرون في مثل هذه التأويلات يعقبون عليها بقولهم «الله أعلم بمراده»، وعلينا مراجعة التفاسير لتمييز الإنشاءات الظنية التي ثبت عدم موافقتها للعلم، ومع ذلك فإن تمحيص المقاربات التفسيرية للمتشابه لا يقتضي للبعض أن يدعي أنَّ القرآن مفتوح لكل الاحتمالات، وكل القراءات، والتأويلات، والإسقاطات، بدعوى كون القرآن «نصاً» مفتوحاً لا حدود له ولا ثوابت إيمانية، وعقلية، وبيانية، ومنهاجية، تحت تأثير نظرية الدوالي المفتوحة لـ «رولان بارت».

حدود القراءة التزامنية للقرآن

أما ما زعمه البعض بأن أصدق القراءات للقرآن هي القراءة التي تعيده إلى زمن النزول، وتفقهه وفقاً لمقاربة الكلمات في تاريخ التنزيل، فإنها كلمة فيها حق قد يراد بها باطل، لأن ذلك يقتضي إعادة الكلمة إلى مقاربها في الحالة الجاهلية، علماً بأن القرآن قد بدَّل المقاربات التاريخية والمعروفة لبعض الكلمات، فالصلاة مثلاً لدى القوم ما كانت إلا تصفيراً وتصفيقاً، وهذه الأعمال كانت هي صلاة القوم وما تعنيه من مقاربة واقعية كما قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: 35] بينما بينت كلمة الصلاة في القرآن والسنة على أنها كلمات وتلاوة من القرآن وتسبيح وأذكار وأدعية وصور حركية من القيام والركوع والسجود، مباينة لمقاربة الصلاة في اللغة المعاصرة للقوم وفي

معجمهم المتداول. . . . فضلاً عن جوهر الصلاة الإسلامية التي تتضمن الخشوع، وتقتضي الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، وتدعو للإنابة إلى الله والإخلاص له سبحانه، وتزكية النفس وإصلاحها، قال ﷻ: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: 45]، بينما كانت صلاة القوم صلاة ساهية غافلة، وعملاً ريائياً محبطاً وغير مقبول كما قال ﷻ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون: 4-7].

فالصلاة بمقاربتها اللغوية وبالقراءة التزامنية التي تتكون من حركات عابثة، وتخلط برغبات شهوية لا يرضاها الله سبحانه، أما الصلاة بتنزيل القرآن بتفاصيلها وخشوعها وسماتها وبركتها فهي المرضية.

وكذلك الحج فقد تغير تفسيره اللساني؛ إذ كان المشركون يحجون عرايا، ويأتون البيت من غير الباب الاعتيادي بل من ظهره، بينما ظهر للحج تفسير خاص بالقرآن أزال بعض الطقوس الأسطورية والشركية عنه. .

ومن الأمثلة على الكلمات التي نقلها القرآن من المقاربة اللغوية وقاموسها التاريخي إلى دلالة إسلامية: الصلاة، الزكاة، الحج، الصوم في الشعائر، والوضوء والغسل والجنابة في الطهارة، والإيمان والكفر والنفاق والشرك في الأمور المتصلة بالإيمان، والتوبة والإنابة والإخلاص في الأعمال القلبية. ثم كيف يمكن التوفيق بين القراءة التزامنية للقرآن وجعلها هي القراءة الصائبة تفصيلياً وذلك بفقه مفردات الكتاب وفق معانيها فقط في زمن التنزيل، وبين ما ذهب إليه صاحب هذا المذهب نفسه من أن للنص تأويلات متعددة مفتوحة لا نهائية؟ وكما قال: «علي حرب» في تقويمه لهذا الكتاب ومنهاجه: «فالقراءة التزامنية بالمعنى المذكور تفترض إصابة المعنى الحرفي

للنص، أو العثور على «معناه» الأصلي والتسليم بذلك يتعارض مع نظرة «أركون» أي: القول بتعدديته واختلافه، وبالفعل فإذا كان المعنى يتبعثر ويتشظى بسبب اختلاف القراء أي القراءات فإن القراءة التزامية تصبح والحالة هذه غير ممكنة». .[1] فالقرآن قد نزل بلسان عربى مبين، وهذا حق، وكان معظم تفسير الكلمات معروفاً عند المتكلمين بهذا اللسان العربي إلا أن القرآن قد بدل تفسير بعض الكلمات عن غيرها، فالقاموس اللغوي لعصر الرسالة لا يكون المرجع الوحيد لتفسير القرآن وتأويل آياته. . . بل القرآن والأحاديث والأخبار الموثّقة كذلك.

كما أن إسقاط مقاربات لغوية اشتقاقية أو اصطلاحية متأخرة متطورة على كلمات القرآن كذلك عمل غير سليم، وكمثال على ذلك أنّ المفسرين فسَّروا «الدحو» بالبسط فقط في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: 30] لكن الدحو يتضمن البسط والدفع من «الدحى»، وحركة على خط في سير ما، وأخرى دورانية للشيء على نفسه، وكذلك «الطحو» الذي هو الدفع، وبه علينا أن نفسر الكلمتين. . غالب الظن أن الذين يفضلون القراءة التزامنية للقرآن من الحداثيين يريدون التشكيك في إعجاز القرآن العلمي لذلك قلّلوا من شأن العلماء الذين بينوا بعض هذا الإعجاز بحجة أن العرب المعاصرين لم يعلموا من كلمات القرآن ما نعلمه نحن الآن بعد التقدم العلمي الواسع، لكن الإعجاز العلمي قد أثبت حقه، والقرآن ينتظر المزيد بعد أن قدم أمثال مصطفى محمود والزنداني وزغلول النجار وهيئات الإعجاز العلمي الكثيرة الذي أسلم عليها أعداد لا بأس بها من العلماء الغربيين وغيرهم. .

(1) نقد النص، علي حرب، ص: 81.